

صاحب الجلالة يلقي درسا دينيا

الرباط — ألقى صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني بالقصر الملكي درسا دينيا ختم به سلسلة الدروس الحسنية التي اعتاد جلالته أن يستمع إليها أو يلقيها خلال شهر رمضان من كل سنة.

وكان موضوع الدرس قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة، ويُنزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير».

وهذا نص الدرس الملكي :

بسم الله الرحمان الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

« إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار ».

يقول الله سبحانه وتعالى : « إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت ».

صدق الله العظيم.

كان في إمكاني ووسعي أن لا أقوم بإلقاء أي حديث في هذا الشهر المبارك، كما كان في وسعي أن أختار آية غير هذه الآية، ولكن ارتأيت أن أدلو بدلوي حتى أجعل شباب جيلي والشباب المقبل موقنين ومؤمنين بأن الازدواج أو التثليت في اللغة والتثقيف والتكوين لم يكن ولن يكون عرقلة بين المسلم وبين المعرفة، بل يكون جسرا يمكن طالب العلم من أن يسير عليه آمنا من الزلل، مطمئنا بفضل الله على معارفه وحسن إدراكه.

إن فضيلة شيخنا الأستاذ بلخوجة حينما تفضل وقرأ أمامنا درسه في فن القصص في القرآن، بدأ درسه بما ياتي، وقال أو كما قال :

« إن الديانات القديمة، الديانات الوثنية التي لا تعتمد على برهان ولا على منطق ولا على فلسفة كانت دائما تعتمد على الاجبار أولا، ثم على المغيبات أو على المبهمات ثانيا، وكانت تستعمل المغيبات والمبهمات لتسيطر على الانسان وتستحوذ على طاقته النقدية، حتى يصير مسيرا لا مخيرا، وحتى يصبح بتلك الديانة أو تلك المعتقدات عبدا لا حرا ».

وإني وأنا أقرأ كتاب الله وقفت على هذه الآيات، فصرت أتأمل فيها وأبحث هل فيها مغيبات؟ هل فيها مبهمات؟ هل فيها ما يجعلنا أسارى؟ أم فيها ما يجعلنا طلقاء أحرارا؟ وحينما تتبعتها ورأيت مبناها توصلت — وأرجو الله أن أكون قد توصلت — الى فهم معناها.

إن الله سبحانه وتعالى يقول : « إن الله عنده علم الساعة »، ثم « وينزل الغيث »، ثم « ويعلم ما في الأرحام »، ثم « وما تدري نفس ماذا تكسب غدا »، ثم « وما تدري نفس بأي أرض تموت ».

فالمبنى الأول وهو : أن الله عنده علم الساعة، فيه حرف تأكيد، وفيه معنى العندية والاستئثار.

فعلم الساعة بيد الله سبحانه وتعالى، ولكن الله فتح لنا حتى في هذه الآية أبوابا يمكننا أن لا نقع في ساعات بشرية هي بيدنا في انتظار الساعة الكبرى، الساعة الكونية.

وأريد قبل أن أدخل في تفسير هذه الآية أن أسرد عليكم حديث سؤال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم كما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو قوله : « بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وجلس وأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع يديه على فَخِذَيْه...».

هذا رجل أجنبي لا يعرفه أحد ويتطاول فيسند ركبتيه الى ركبتي النبي صلى الله عليه وسلم، ويضع يديه على فَخِذَيْ النبي صلى الله عليه وسلم، هذا يوحي لي أنه من باب القبض في الصلاة، باب وضع التيار الكهربائي بين الرسول والمرسل إليه، ففي الحقيقة حينما كان جبريل عليه السلام يسأل النبي صلى الله عليه وسلم، أعتقد أنه كان في آن واحد يسأله ويوحي إليه الأجوبة، وقال : شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، قال صدقت، قال فأخبرني عن الايمان، قال عليه الصلاة والسلام أن تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تومن بالقدر خيره وشره حلوه ومره، قال صدقت، قال : فأخبرني عن الاحسان، قال : أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال : صدقت، قال عمر بن الخطاب : فعجبنا له يسأله ويصدقه، ثم قال يا محمد أخبرني عن الساعة، قال عليه الصلاة والسلام : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ثم انصرف فقال عليه الصلاة والسلام : أتدرون من السائل؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : ذاك جبريل جاءكم يعلمكم دينكم ».

وفي رواية أخرى من الحديث أضاف جبريل سائلا النبي عن علاماتها، فقال صلى الله عليه وسلم : أن تطلع الشمس من مغربها، وأن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة يتطاولون في البنيان أو كما قال عليه السلام، وبهذه العلامات تكون الساعة أصنافا، فهناك الساعة الاجتماعية والأخلاقية، وهناك الساعة السياسية، وهناك الساعة الكونية، فالساعة الاخلاقية والاجتماعية هي أن تلد الأمة ربتها فتنعدم المقاييس والموازين، وتفسد الديار وتتخرب البيوتات، وهذا بيدنا وبوسعنا أن نصلحه وأن لا نقع في الساعة الأخلاقية، وهناك الساعة السياسية وهي أن يُقلد الناس أمورهم غير المؤهلين، أن يقلدوا أمر المسلمين من ليس أهلا لها، والدليل على هذا أن هناك أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب، فقد قال : إذا أسندت الأمور الى غير أهلها فانتظر الساعة، وقال : «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » فالساعة السياسية هي أن تسند الأمور الى غير أهلها.

لذا أرى شخصيا أن أحسن نظام لتسيير شؤون المسلمين هو إما النظام الملكي الدستوري، وإما النظام الجمهوري البرلماني المبني على الديموقراطية الحقة، ذلك لأن في كلا النظامين نرى أن التكوين المهني مضمون بالنسبة لمن سيسوس أمور المسلمين، فالأمراء وأولياء العهد يربون بجانب والديهم ويلقنون دروسا في تسيير الأمور ويسيرون في ظل والدهم ويكونون بمثابة الوزير والمعين والمقاسم للسراء والضراء، وأما الذين ارتقوا مدارج الحكم في الديموقراطية الحقة البرلمانية فإنهم يبتدئون أولا بشهادات عليا ثم يلتحقون بديوان وزير ثم يرشحون أنفسهم للانتخابات ثم حينما ينتخبون يمارسون تسيير الأمور، فإذا هم وصلوا الى القمة والى درجة الحكم والتشريع كانوا هم كذلك قد هيئوا من ناحية التكوين المهني، فإذا — لا قدر الله — أسندت الأمور الى غير أهلها : أولئك الذين لا يعرفون معنى الأمانة ضيعوا الأمانة، والحديثان هنا اخوان توأمان، فانتظار الساعة السياسية :

عدم الاطمئنان، والفتن، والحروب، وجميع المصائب وقانا الله شرها، وهناك الساعة الكونية : تلك الساعة التي نرى فيها الشمس تطلع من مغربها، إذ ذاك أظن أنها هي الساعة التي يريد بها الله أن العالم قد انقضى وأن الحياة قد طويت على هذه الكرة الأرضية لا في جميع الكون، لأن الله سبحانه وتعالى خلق سماوات وأراضي عديدة.

فإذن حتى في هذه الآية الأولى التي وقف الله سبحانه وتعالى علم الساعة على نفسه أعطانا الوسيلة لأن نتجنب الساعات البشرية التي بيدنا، إما أن نخلقها أو نتجنبها الساعة الأخلاقية والاجتماعية والساعة السياسية تاركا لنفسه سبحانه وتعالى أن يفني هذه الأرض وهذا الكون حينما يريد.

إذن إن الله عنده علم الساعة.

(وينزل الغيث)، لم يقل سبحانه وتعالى : لا ينزل الغيث إلا هو، والدليل على هذا أنه منذ سنين وأعوام اكتشف العلماء والباحثون مدافع خاصة ترد الضباب الذي يحمل معه البرد، فالسحب التي تحمل البرد معروفة بلونها وتكون سوداء معروفة بشكلها وتكون مستطيلة في غالب الأحيان، ويمكن للانسان منذ سنين أن يضربها بمدافع خاصة تكون تلك المدافع مدافع كيماوية وتجعل ذلك السحاب الذي كان سيأتي بالدمار وبالخسران يتشتت، فلا برد ولا ضرر، وأحسن من هذا، الكل يعلم الآن أن الدول العظمى سائرة في البحث لوضع أحسن القواعد للحرب الطقسية أو الميتيولوجيّة، فبالامكان الآن أن نجعل من أرض خصبة صحراء، ويمكن الآن أن نحول الرياح اللواقح، الرياح الحاملة للمطر عن مجراها الطبيعي، ونجعل أرضا من الأراضي التي كانت جنة وخصبة لا تعرف المطر ولا تعرف الغنى، ومن المعلوم أننا يمكننا كذلك اليوم أن نسلط الريح لا الرياح، الريح التي لا تبقي ولا تذر حتى تصبح تلك الأرض المطمئنة الآمنة غارقة تحت المياه.

وهكذا تنزيل الغيث هو بيد الله سبحانه وتعالى، ولا يحسن بالله سبحانه وتعالى أن ينزل إلا الغيث، لأنه لم يعود عباده إلا الخير، وحتى إذا بالغ في إرسال ذلك الغيث فإنما يكون ذلك درسا ذا جلال يتبعه الجمال.

(ويعلم ما في الأرحام) : وصل العلم الحديث اليوم سواء في أمريكا أو في الصين الى معرفة هل في رحم المرأة ذكر أو في رحمها أنثى بعد مضي شهرين على الحمل، فعند الأمريكان يستعملون وسيلة فيأخذون من غشاء الجنين شيئا من السائل السلوي فيحللونه ويعرفون بذلك هل في بطن المرأة ذكراً أو أنثى، ونسبة الحقيقة عندهم 85 في المئة.

أما الصينيون فقد وصلوا الى 95 في المئة من اليقين والحقيقة باستعمال طريقة أخرى وهي أنهم يأخذون شيئا ما من السائل الذي في فرج المرأة لا في رحمها فيحللونه ويعرفون بذلك هل المرأة حامل بذكر أو بأنثى، وزاد الأمريكان أكثر من هذا، في بعض الولايات جعلوا الاجهاض حلالا فيما إذا اتفق الأب مع الأم بعد ما علموا أن في الرحم ولدا وهم يريدون بنتا، جعلوا الاجهاض حلالا محللا في مستشفياتهم.

وهذا نوع من البحث وميدان من المذاكرة والمناقشة ربما سيكون من فم طبيب أفصح وأوضح مما هو من فمي، المهم أن العلم والاحصائيات والتجربة والتحليلات كلها تعطينا أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما في الأرحام، ولكن بتكريمه لابن آدم وبإعطائه سلطان العلم والمعرفة جعله يقاسمه علمه بما في أرحام الأمهات.

(وما تدري نفس ماذا تكسب غدا) : أعتقد شخصيا أن الكسب هنا ليس الكسب بمعنى الرزق بل معنى الاتيان بالعمل الصالح أو بالعمل الطالح، ولو كان الكسب المادي هنا هو المعني لأصبحنا اليوم في إضراب

مستمر من لدن الموظفين، حيث أنهم لا يكونون متيقنين من أنهم سيأخذون أجورهم في آخر كل شهر، بل لما تمكنا من التخطيط لثلاث سنوات أو أربع سنوات، أعتقد هنا أن الكسب هو العمل، ذلك أننا حينما نصبح لا نعرف هل سنلاقي من الظروف أو سنلاقي من الأحداث ما سيجعلنا في يومنا مجرمين إما بقتل روح متعمدين قتلها، حينما نصبح لا نعلم هل سنأتي بكبيرة من الكبائر أو بفاحشة من الفواحش، والدليل على هذا الحديث النبوي الشريف حينما قال النبي صلى الله عليه وسلم وكم يعجبني هذا الحديث : « لن يدخل الجنة أحدكم بعمله، قالوا : ولا أنت يا رسول الله! قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته » فهذا يجعلنا نعتقد أن هذا هو المعني بقوله تعالى : (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا)، لأن بعدها الموت، (وما تدري نفس بأي أرض تموت)، الكسب هو كسب العمل الصالح أو كسب العمل الطالح، نعم، هناك أنواع من الكسب تساير المقامرة يمكنها أن تدخل في هذا الصنف، مثلا الرجل الذي يضارب في البورصة ويمكنه بين عشية وضحاها أن يصبح فقيرا تماما أو يصبح غنيا ولكن هذا النوع من الكسب هو أولا نوع استثنائي ولا يتعاطاه إلا من لهم سواعد مالية وعضلات يمكنها أن تتحمل النكبات وتتحمل جميع الأزمات الاقتصادية أو المالية على الصعيد المالي، أما الكسب الوارد في الآية الكريمة فحينما يقول الله سبحانه وتعالى لا تعرفون ماذا تكسبون غدا، أي ماذا تكسبون من عمل صالح أو عمل طالح، فحين نصبح لا نعرف هل سنأتي بتلك الحسنة التي تجعلنا في ظل الله سبحانه وتعالى يوم لا ظل إلا ظله أم سنبوء والعياذ بالله بارتكاب فاحشة أو كبيرة من الكبائر.

(وما تدري نفس بأي أرض تموت)، فعلا كانت في أيام النبي صلى الله عليه وسلم مستحيلة وأصبحت اليوم مستحيلة تماما ونهائيا، وأن في أيام النبي صلى الله عليه وسلم كان الانسان حينما يريد السفر، يقول : أنا سأذهب من المغرب الى المشرق ويعرف أن هناك أمامه ثلاثة أشهر أو أربعة، فكان يمكن أن يتنبأ أن لا يمكن أن تدركه المنون في بلاد العرب دون تحديد لليبيا أو تونس أو الجزائر أو المغرب وفي الشرق على الابل أو على المطايا إذا كان هو قاصدا بلاد الفرس لا يعرف بأي أرض يموت.

أما اليوم ونحن نطير في الطائرة لا يمكننا نهائيا أن نعلم بأي أرض سنموت، السرعة تجعلنا نجهل تماما مكان موتنا، ولكن هناك استثناء، هنالك استثناء واحد أراده الله سبحانه وتعالى لخليله ومصطفاه ورسوله، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار : يا معشر الأنصار المحيا محياكم والممات مماتكم، وهذه معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ما أظن أنها وردت في كتاب من الكتب التي قرأتها.

هذا الحديث هو مجموعة من الأحاديث أردت أن يسرد أمامكم كلا لا مجزأ لأنه هكذا كان يسرده شيخ الجماعة وأستاذ الأصالة ووزير الدولة الأستاذ الفقيه الشيخ شعيب الدكالي رحمه الله ونفعنا ببركاته :

« الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، إن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار ».

أما بعد :

فقد روى أئمة الحديث رضوان الله عليهم فيما ورد في فضل الأنصار، عن أبي سعيد الخُدري وعن أبي هريرة وعن جابر بن عبد الله وعن غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم وأرضاهم أن رسول الله صلى الله



عليه وسلم بلغه أنه لما أعطى ما أعطى قريشا وقبائل العرب ولم يعط الأنصار شيئا كثرت فيهم القالة حتى قال بعضهم : ما بال رسول الله يعطي قريشا ويدعنا وان سيوفنا لتقطر من دمائهم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجمعوا في قبة من ادم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال — وكأنه صلى الله عليه وسلم في عتابه هذا يتكلم بجلال لأنه يعاتب الأنصار ويواخذهم : يا معشر الأنصار ما حديث بلغني عنكم؟ قالوا : أما كبارنا وذوو الرأي فينا فلم يقولوا شيئا، وأما صغارنا فقالوا : مابال رسول الله يعطي قريشا وأن سيُوفَنا لتقطر من دمائهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — هذا هو العتاب — يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف بين قلوبكم، قالوا : الله ورسوله أمنُّ وأفضل، ثم قال : يا معشر الأنصار والله اني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه اتألفه على الاسلام، يا معشر الأنصار أما لو شئتم لقلتم أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فواسيناك، ثم قال صلى الله عليه وسلم : يكثر الناس وتقلون حتى تصيروا كالملح في الطعام، يا معشر الأنصار ستصيبكم بعدي اثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله تضمونه الى رحالكم، والذي نفس محمد بيده أنه لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا لسلكت شِعْبَ الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ».

ويزيد الحديث : فبكى القوم كثيرا حتى اخضلت لحاهم، وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا، ثم قال صلى الله عليه وسلم وهو يبتسم لهم ويواسيهم ويقول لهم : « المحيا محياكم والممات مماتكم »، وهذه هي المعجزة الخفية التي أعطاها الله سبحانه وتعالى لنبيه وخصه بها حيث أنه جعله يعلم أن محياه بين الأنصار وموته بين الأنصار، فلو قالها غير النبي صلى الله عليه وسلم لقلنا انها ديماغوجية، لقلنا أن هذا صنف من أصناف جبر الخواطر، ومسح الدموع والأخذ بالعاطفة، ولكن قولة النبي صلى الله عليه وسلم هي القولة الحق، فلا يمكن أن يتصور أي أحد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قال هذه القولة للأخذ بخاطر الناس أو لجبر ما انكسر فيهم بعد العتاب الشديد القاسي الذي عاتبهم به.

حضرات السادة :

هذا ما كنت أريد أن أقوله وأفسره كما أراه وكما أفهمه من هذه الآيات القرآنية، نعم كان في الامكان أن يكون الحديث أطول لو كان الحديث من طرف ممتهن لهذه المهنة ومتدرب على الاتيان بتفاسير في الحديث والقرآن، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن لا أكون قد أخطأت أو جازفت في تفسيراتي، أرجو الله أن لا يرى في مشاركتي إياكم في هذه المحاضرة والدروس الدينية إلا تعبيرا صادقا عما قلدني سبحانه وتعالى من حفظ لأمانة المسلمين، الأمانة الدينية والروحية، فلا يعقل أن يكون إنسان يميز بين الصالح والطالح، بين الحلال والحرام، أن يكون إنسان يميز هذا التمييز ملقبا بلقب أمير المؤمنين دون أن يظهر ولو القدر مما أعطاه الله من فهم وما وهبه من تعلق قبل كل شيء بكتاب الله وسنة رسوله، ذلك أن سنة جدي صلى الله عليه وسلم هي تلك المحجة البيضاء التي كلما ادلهمت علينا الظروف وأظلمت الأجواء، كفانا أن ننظر بعين الحق لا بعين الباطل، بعين الله لا بعين الشيطان، الى تلك المحجة، فنسير على المحجة البيضاء حتى لا تختلط علينا السبل وحتى لا نتيه بين الطرق.

فالله سبحانه وتعالى نسأل أن يجعلنا دائما على تلك المحجة البيضاء، ونرجوه سبحانه وتعالى أن يزيدنا تشبثا بمبادىء الاسلام وبأخلاق الاسلام، فإذا تشبثنا بها تجنبنا الساعة الخلقية، وإذا تشبثنا بتعاليم الاسلام وتشبثنا

بأوامر النبي صلى الله عليه وسلم، كنا أهل ضمير مهني لا نتسلط على المسؤوليات ولا ندخل البيوت من غير أبوابها، بل لا نقبل من المسؤوليات إلا ما نشعر أننا قادرون على تحمله والاتيان به على أحسن وجه، إن الله سبحانه وتعالى قال : إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يوتكم خيرا، فأنا دائما أتشبث بهذه الآية، وهي التي تجعلني أعتقد أن الله سبحانه وتعالى ألزم نفسه وشرط على نفسه أن يأتيني خيرا كلما رآى في قلبي خيرا.

والخير الذي يأتي به أعظم وأكبر وأجسم من الخير الصغير المتواضع الذي يمكنه أن يعلمه في قلبي، وأنا أرجوه وألح عليه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : إن الله يحب العبد الملحاح، إن الله يحب العبد الملحاح.

وأحسن دعاء يمكننا أن نختتم به الدروس الحسنية هو أن نرجو الله سبحانه وتعالى أن يديم علينا رضا والدنا رحمة الله عليه، فرضى الوالدين يبقى محيطا بأبنائهم أحياء كانوا أو أمواتا، وربما كان رضاهم وهم بجانب الصديقين والشهداء أقوى وأمتن وأعمق وأكثر، فاللهم ارحم والدنا محمد الخامس، اللهم جازه عنا خير جزاء، اللهم إنك تعلم أنه كان لا يرى أي ملاذ إلا في القرآن، ولا يرى أية حماية إلا في حمايتك، ولا يرى أي حليف إلا في حلف جده ورسولك.

اللهم ببركة النبي صلى الله عليه وسلم وببركة كتابك وبجاهك القدسي امطر عليه شآبيب رحمتك واجعله آمنا مطمئنا بجانب من تحب.

وأنا شخصيا وكلنا معتقد أنه رحمه الله لن يخاف يوم القيامة، لأنه جمعت فيه الخصال السبع التي يروى في الحديث أن من كانت فيه واحدة منها أظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، فكان إماما عادلا، وكان رجلا قلبه معلق بالمساجد، وكان شابا نشأ في عبادة الله، وكان يتصدق خفية، وكان ولله الحمد فيه جميع الخصال التي وصفها الحديث، وكان إذا سمع كلام الله دمعت عيناه.

وأحسن الختام هو ختامنا بختم الصحيح للامام البخاري ».

الخميس 12 رمضان 1398 — 17 غشت 1978